حول دراسة «هارفرد» ودور اللوبي الاسرائيلي في القرار الامريكي:

الانتقال من التأثير الى «الوصاية»؟

عباس المعلم*

منذ ان نشأ الكيان الصهيوني على أرض فلسطين عام 1948 استطاع ان يشكل أولوية لدى السياسة الامريكية الخارجية التي كانت وما زالت تعلن جهارا دعمها اللامحدود لدولة اسرائيل، وبرز هذا الدعم في شتى المجالات اهمها الدعم العسكري والسياسي بالاضافة الى الدعم الاقتصادي الذي لا يقل أهمية عن الدعم الرئيسي، ومنذ عام 1948 وحتى عام 1967 كان الدعم الامريكي لاسرائيل يتصاعد بشكل منظم يتناسب مع حساسية تلك المرحلة ويخضع ايضا لمبدأ موازين القوى العالمية في ذلك الحين، لكن هذا الدعم الامريكي كان ينظر له من قبل اليهود الصهاينة داخل الولايات المتحدة، بانه يحتاج الى دفع اقوى يجعله يتبنى مساندة دولة اسرائيل بشكل كامل، لا يخضع لاي تبدل او تحول في سياسات الادارات الامريكية المتعاقبة.

وعليه بدأت تظهر ملامح اللوبي الصهيوني داخل مركز القرار الامريكي، ليصبح اليوم شريكا فعليا في القرار الامريكي خصوصا السياسة الخارجية، بالاضافة الى امتلاكه حق الفيتو غير المعلن على العديد من القرارات الرئيسية التي تتخذها الادراة والحكومة الامريكية، وقد اتخذ هذا اللوبي اشكالا عدة تتوزع داخل المراكز الاساسية في الادارة الامريكية، وبهذا الصدد عملت مجموعات من هذا اللوبي على التغلغل داخل الحياة السياسية الامريكية، ويمكن ان نجزم ان التواجد الصهيوني الفاعل في الولايات المتحدة يرتكز بشكل اساسي على احكام سيطرته في المشاركة على صناعة الادارة الحاكمة في واشنطن والتأثير على وجهتها السياسية وفق ما يتناسب مع خدمة مصالح الدولة العبرية.

الحديث عن اللوبي الصهيوني وتأثيره في الادارات الامريكية المتعاقبة على اختلاف تنوعها: «جمهورية او ديمقراطية، ليس هو الا حلقة من قوة مترابطة ومتكاملة تشكلها عدة مجموعات ينقسم عملها على الشكل التالي، اولا السياسة الخارجية لامريكا والتي يعتبرها اللوبي قوة الدعم الكبرى لاسرائيل، ثانيا الدعم الاقتصادي والعسكري، ثالثا الدعم الاعلامي والاكاديمي.

ايضا فان مكونات اللوبي لا تقتصر فقط على اليهود المتواجدين داخل امريكا، بل هناك مجموعات وشخصيات وتيارات امريكية فاعلة تعمل لصالح اللوبي وتعرف باليمين المتطرف اي، الصهيونية المسيحية، ومنها اسماء شخصيات بارزة في الادارة الامريكية الحالية او التي سبقتها، وهم في مواقع حساسة ورفيعة لهم تأثيرهم داخل القرار الامريكي، وفي هذا السياق برزت في الاسابيع الاخيرة دراسة صدرت عن جامعة (هارفرد) الامريكية بعنوان اللوبي الاسرائيلي والسياسة الخارجية الامريكية، اعدها استاذ العلوم السياسية في جامعة «شيكاغو» جونامير شايمر، بالاشتراك مع استاذ الادارة في جامعة هارفرد، ستيفان والت، وتضمنت هذه الدراسة شرحا عن المنظمات والافراد والولاء لاسرائيل، التأثير في الكونغرس والحكومة، التأثير في الاعلام ومراكز الدراسات واستغلال معاداة السامية، دور الولايات المتحدة التاريخي كمنقذ لاسرائيل وعناصر استدرار العطف الدولي بالاضافة الى الحرب على العراق، وسورية وايران.

وتشير هذه الدراسة بوضوح وعمق لمجريات عمل اللوبي الصهيوني وتأثيره في الولايات المتحدة، وهذا الأمر ليس مفاجئا من حيث المبدأ، لكن التطرق اليه بهذا الوضوح يؤكد ان الدعم الامريكي لاسرائيل خصوصا ضد العديد من دول الشرق الاوسط يدخل ضمن المشروع الصهيوني ـ الامريكي، الرامي الى تعزيز دور اسرائيل وتفتيت الدول العربية والاسلامية التي تشكل خطرا على امن الكيان الصهيوني، مما يؤكد ان مصطلح المشروع الصهيوني الامريكي، ليس كما يصوره بعض المسؤولين والمثقفين والكتاب العرب انه هروب من الواقع، وليس هو الا شعار ترفعه بعض الانظمة وحركات المقاومة من اجل الحفاظ على مواقعها، لكن هذا الامر بطبيعة الحال وكما هو مدرج في الدراسة يثبت ان هذا المشروع هو من الالف الى الياء لصالح الكيان الصهيوني ومصالحه وليس كما يصور البعض ان التدخل الامريكي في منطقتنا هو لحماية المصالح الامريكية ونشر الديمقراطية، لأن هذه المصالح هي ايضا في خدمة المصلحة الاسرائيلية اولا واخيرا.

وحسب ما ورد في هذه الدراسة تضم نواة اللوبي الاسرائيلي اليهود الامريكيين الذين يبذلون جهدا مهما في حياتهم من اجل تحويل السياسة الامريكية الخارجية بما يحقق مصالح دولة اسرائيل، ويتجاوز هذا الجهد مجرد التصويت للمرشحين الامريكيين المدافعين عن اسرائيل الى كتابة الخطابات، بالاضافة الى التبرعات المالية ودعم المنظمات الموالية لاسرائيل.

اما مكونات اللوبي الرئيسية فهي منظمة «ايباك» ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الكبرى ويديرها اشخاص متشددون وتدعم هذه المنظمات سياسات حزب اللكود، بالاضافة الى حزب كاديما ويقوم هذا اللوبي بمعاقبة وتوبيخ اي جهة توجه انتقادا لاسرائيل او تدعم اي نوع من الضغوط عليها، مثال على ذلك اتهام رئيس «المؤتمر اليهودي العالمي» ادغار برونفمان بالخيانة لانه بعث برسالة الى الرئيس جورج بوش عام 2003، يحثه فيها على الضغط على اسرائيل لردعها عن بناء جدار الفصل المثير للجدل، ويواجه كل صوت يهودي غير منسجم مع سياسة اللوبي المنحازة لاسرائيل عقوبة الطرد من الجالية.

وتجزم الدراسة ان «ايباك» هي اقوى المنظمات اليهودية واشهرها وهي التي صنفها الكونغرس الامريكي في المرتبة الثانية من لائحة اقوى اللوبيات الموجودة في واشنطن بعد الاتحاد الامريكي للمتعاقدين، ويضم اللوبي الاسرائيلي حسبما ورد في الدراسة شخصيات مسيحية انجيلية بارزة مثل غاري بوير، جيري فالويل، رالف ريد، بات روبرتسون، ديك ارمب، طوم ديلاي، بالاضافة الى المحافظين الجدد امثال الممثل الدائم لامريكا في مجلس الامن جون بولتون ومحرر صحيفة «وول ستريت جورنال»، روبرت باريلي، وليم بنيت، جورج ويل، ويؤمن كل هؤلاء جميعا «ان بعث اسرائيل هو جزء من نبوءة الكتاب المقدس» وبالتالي فان اي تصد لها يعني «معارضة رغبة الله».

فيما خص استراتيجية اللوبي للضغط على الكونغرس يتبع اللوبي استراتيجيتين من اجل التحكم بدعم الولايات المتحدة لاسرائيل، الاولى تركز على الضغط على كل من الكونغرس والحكومة، والثانية على دوام الصورة الايجابية لاسرائيل لدى الراي العام، ايضا فان فاعلية اللوبي في الولايات المتحدة ترتكز في تأثيرها على الكونغرس حيث تحظى اسرائيل بمناعة ضد الانتقاد، ويكمن احد اسباب هذا المحرم في وجود بعض الاعضاء «المفاتيح» في الكونغرس ممن تصفهم الدراسة الامريكية بالمسحيين الصهاينة، امثال ديك ارمي الذي قال في ايلول (سبتمبر) عام 2002، ان الرقم 1 في اولوياتي للسياسة الخارجية هو حماية اسرائيل، ما تعلق عليه الدراسة بالقول ان المرء ليظن ان الاولوية الاولى لأي عضو في الكونغرس الامريكي يجب ان تكون لحماية اسرائيل...

بالاضافة الى هؤلاء المسيحيين الصهاينة هناك ايضا اعضاء في مجلس الشيوخ يحرصون دوما على دعم اسرائيل في السياسة الخارجية الامريكية، وفوق هؤلاء واولئك، ثمة دور بارز يؤديه موظفو الكونغرس ويشكل مصدرا اخر لقوة اللوبي الاسرائيلي وذلك بالاستناد الى اعتراف الرئيسة السابقة لمنظمة ايباك، موريس اميتاي، التي قالت ان هناك اشخاصا كثيرين يعملون ضمن فريق الموظفين اعلاه في الكابيتول هيل، صدف انهم يهود والذين يرغبون في النظر في بعض القضايا انطلاقا من يهوديتهم وهؤلاء هم جميع الاشخاص الموجودين في مواقع صناعة القرار لاعضاء الكونغرس وبالامكان الحصول على نتيجة هائلة من هذا الفريق فقط..

والواقع ان «ايباك» هي التي تشكل بنفسها نواة اللوبي الضاغط في الكونغرس، ويعود نجاحها في ذلك الى قدرتها على مكافأة مرشحي البرلمان والكونغرس الداعمين لاجندتها، ومعاقبة اولئك الذين يتحدون الاجندة، وتجزم الدراسة بان المال هو الحاسم في الانتخابات الامريكية، وايباك تحرص على ان ينال اصدقاؤها دعما ماليا قويا من الاف اللجان السياسية الناشطة الداعمة لاسرائيل، فيما تمنح هباتها المالية لخصوم اولئك المعادين لاسرائيل..

الضغط على الحكومة

من المألوف عن الحكومات الامريكية انها تساند سياسات اسرائيل في مختلف الصعد، حتى ان القرارات السياسية الامريكية الصادرة عن الحكومة تتأثر بنسبة عالية بالشأن الاسرائيلي وكيفية تكيف هذه القرارات مع المصلحة الاسرائيلية، وتبرز قوة اللوبي على الحكومة جزئيا في تأثير الناخبين اليهود في الانتخابات الرئاسية، فبمعزل عن حجم هؤلاء المحدود نسبيا (اقل 3 % من الناخبين) الا انهم يقدمون تبرعات مالية ضخمة في الحملات الانتخابية لكلا الحزبين.

واكثر من ذلك فان الناخبين اليهود يحرصون على التمركز في ولايات تعتبر حاسمة في الانتخابات الرئاسية مثل فلوريدا، الينوي، نيويورك، وبنسلفانيا، كل ذلك من اجل جعل المرشحين الرئاسيين حريصين على تجنب معاداة الناخبين، وفي هذه الحالة يبدو ضغط اللوبي على الحكومة الامريكية اشد وضوحا في ادارة الرئيس جورج بوش، الذي يزخر طاقمه باشخاص مناصرين لاسرائيل مثل اليوت ابرامز، جون بولتون، دوغلاث فايث، لويس سكوتر ليبي، ريتشارد بيرل وبول وولفويتز، دايفيد وورمسير، ولا تزال هذه المعادلة سارية اليوم، فحين دعا المرشح الرئاسي في انتخابات عام 2004، هاوارد دين الولايات المتحدة الى تأدية دور اكثر اشرافا في النزاع العربي ـ الاسرائيلي، اتهمه السيناتور اليهودي جوزيف ليبرمان بانه يهدد اسرائيل، ووقع جميع الديمقراطيين البارزين في الكونغرس رسالة شديدة اللهجة وجهت الى دين وادانت تصريحه.

الدعم الاعلامي الامريكي لاسرائيل

لا شك ان دور الاعلام له اهمية خاصة لدى دوائر اللوبي في الولايات المتحدة، ويعول على الشأن الاعلامي بشكل لافت نظرا لدوره في تجييش الرأي العام الأمريكي بكافة قطاعاته لصالح سياسة دعم الكيان الصهيوني، ايضا فان الدور الاعلامي للوبي اضحى ركيزة اساسية ومؤثرا داخل القرار الامريكي، خصوصا بما بات يعرف بالدفاع عن السامية والمحرمات هذه الشعارات التي تعتبر خطا احمر لدى الادارة الامريكية لانها مخصصة فقط للدفاع عن اسرائيل بوجه اي هجمة اعلامية او ثقافية عليها..

تنعكس وجهة نظر اللوبي تجاه اسرائيل بشكل كبير في وسائل الاعلام الامريكية، لان معظم المعلقين ومقدمي البرامج هم موالون لاسرائيل، ويقول الصحافي اريك الترمان ان مناقشة قضايا الشرق الاوسط في هذه الوسائل يتولاها اشخاص لا يمكن ان يطيقوا انتقاد اسرائيل، وفي مقابل 61 معلقا مؤيدا لاسرائيل، وجد «الترمان» خمسة معلقين فقط ينتقدون اسرائيل بشكل منتظم ويظهرون مواقف موالية للعرب، ويظهر التحيز الكبير للاعلام الامريكي تجاه اسرائيل في افتتاحيات الصحف الرئيسية ومن بينها «وول ستريت جورنال، وجورنال، شيكاغو صان تايمز واشنطن تايمز، نيويورك تايمز»، بالاضافة الى مجلات «كومانتري، نيو ريبابليك، ذي ويكلي ستاندر».

تسيطر الجماعات الموالية لاسرائيل على مراكز الدراسات الامريكية، التي تؤدي دورا مهما في تكوين النقاشات العامة والسياسات الحالية، وقد اسس اللوبي مركزه الخاص للدراسات في العام 1985، عندما ساعد مارتن انديك على تأسيس «وينيب» وبرغم ان المؤسسة تدعي انها تقدم نظرة متوازنة وواقعية حول قضايا الشرق الاوسط، فانها تدار من قبل اشخاص مرتبطين بشكل مباشر في عملية دفع البرنامج الاسرائيلي الى الامام، وخلال الـ25 سنة الماضية اوجدت القوة الاسرائيلية حضورا اساسيا في عدد من المؤسسات المهمة مثل مركز السياسة الامنية، معهد الابحاث حول السياسة الخارجية، معهد هادسون..

ومن الامثلة الاخرى على ذلك، التحول الذي طرأ على «معهد بروكينغر» وبعدما كان يعتمد المعهد في ما يتعلق بشؤون الشرق الاوسط والصراع العربي الاسرائيلي على ويليام كوانت اصبح يعتمد على مركز سابان لدراسات الشرق الاوسط الذي يموله حاييم سابان رجل الاعمال الاسرائيلي الامريكي والصهيوني..

من الناحية الاكاديمية

ضاعفت «ايباك» من مصاريفها على برامج ادارة نشاطات الجامعات اضافة الى تدريب جيل شاب من المحامين عن اسرائيل، كما حاول اللوبي مراقبة ما يكتبه ويعلمه الاساتذة وفي عام 2002 اسس موقعا على الانترنت لنشر ملفات حول اكاديميين مشتبه فيهم، وشجع التلاميذ على نقل التعليقات او التصرفات التي قد تعتبر معادية لاسرائيل، ولعل اهم ما اقدم عليه اللوبي في هذا السياق الطلب مؤخرا من الكونغرس تبني مشروع قانون ينص على مراقبة كل ما يقوله اساتذة الجامعات حول اسرائيل، ولا شك ايضا ان احد اقوى اسلحة اللوبي هو الاتهام بمعاداة السامية فان اي شخص ينتقد اعمال اسرائيل او يقول ان هناك لوبيا اسرائيليا، يخاطر بان يصنف معاديا للسامية، لذلك فان الجماعات الموالية لاسرائيل عندما تشعر بضغط ما، تدعي ان هناك معاداة سامية جديدة بشكل آخر انتقد سياسات اسرائيل تصبح معاديا للسامية..

الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري بالاضافة الى حق الفيتو

لعل اهم ما تعطيه الادراة الامريكية لاسرائيل هو المساعدات الاقتصادية والعسكرية، التي تشكل العمود الفقري لقوة اسرائيل العسكرية والاقتصادية خاصة وانها في حالة حرب دائمة وتعتبر الترسانة العسكرية لديها العنصر الرئيسي في حماية الكيان الاسرائيلي ومن اهم ركائز الامن القومي الصهيوني، وبالطبع فان اي ترسانة عسكرية ضخمة تحتاج ايضا لمساعدات اقتصادية سخية تعادل ما تتطلبه هذه الترسانة، ولا شك ايضا ان العنصر السياسي يؤمن الدفع الاقوى للشأن العسكري والاقتصادي، خاصة الغطاء الدولي داخل مجلس الامن ومعروف عن الادارة الامريكية دعمها الاعمى لاسرائيل بوجه اي قرار من شأنه ان يدين سياسات اسرائيل العسكرية والتوسعية.

قدمت واشنطن منذ العام 1967 مساعدات ضخمة لاسرائيل، قزمت اي دعم نالته يوما اي دولة اخرى، فكانت اسرائيل المستفيد السنوي الاكبر من المساعدات الامريكية الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية والتي تجاوزت 140 مليار دولار منذ الحرب العالمية الثانية، وهي تتلقى سنويا 3 مليارات دولار كمساعدات مباشرة، بما يعادل 500 دولار للفرد الاسرائيلي ذلك على الرغم من ان اسرائيل تعتبر دولة صناعية ثرية.

كما منحت الولايات المتحدة اسرائيل حوالي 3 بلايين دولار من اجل تطوير انظمتها التسليحية واعطتها الاذن باستغلال تصاميم الاسلحة كمروحيات (البلاك هوك) ومقاتلات (اف 16) وحتى الاطلاع على المعلومات الاستخبارية الامريكية التي تحجبها عن حلفائها في الناتو، فضلا عن ان امريكا تغض النظر عن امتلاك اسرائيل اسلحة نووية.

اما الدعم السياسي فمنذ عام 1982 استخدمت واشنطن حق الفيتو 33 مرة في مجلس الامن ضد قرارات تنتقد اسرائيل بما يتجاوز مجموع «الفيتو» الذي استخدمه الاعضاء الاخرون مجتمعين كما انها عطلت جهود الدول العربية لوضع ترسانة اسرائيل النووية على اجندة وكالة الطاقة الذرية، وتجلى الدعم السياسي الامريكي المطلق لاسرائيل حين بدأ الرئيس جورج بوش يحث شارون على اظهار ضبط النفس في الاراضي الفلسطينية خلال الانتفاضة الثانية، ويضغط عليه للسماح لوزير الخارجية بيريز بلقاء عرفات في ايلول (سبتمبر) عام 2003، واتهمه شارون بمحاولة استرضاء العرب على حساب اسرائيل محذرا من ان اسرائيل لن تكون تشيكوسلوفاكيا وبعدما قدم صيغة اعتذارية لاحقة انضم شارون الى اللوبي الاسرائيلي لاقناع الادراة والشعب الامريكي بان واشنطن واسرائيل تواجهان تهديدا ارهابيا مشتركا، اي ان لا فرق بين اسامة بن لادن وياسر عرفات.

ايضا فان استسلام بوش لسياسة شارون الوحشية ووصفه بانه رجل سلام تشير بوضوح الى الاذعان الامريكي للرغبات الاسرائيلية وجاءت الاشارة الاولى لاستسلام بوش بعد اسبوع من احداث 11 ايلول (سبتمبر)، باختصار استولى شارون واللوبي على رئيس الولايات المتحدة وانتصروا، وكتب حاييم شاليف الصحافي في جريدة «معاريف»، بان مساعدي شارون لم يتمكنوا من اخفاء ارتياحهم لفشل باول في لقائه مع عرفات، وقد تفاخروا بان شارون نظر في عيون الرئيس الامريكي، وان بوش رمش اولا؟! ولا ننسى ما قاله مستشار الامن القومي الامريكي السابق برنت سكوكروفت في تشرين العام 2004 بان شارون يضع بوش كخاتم في اصبعه الصغير.

اسرائيل فاضلة وعرب اشرار

تعمل اسرائيل بين الحين والاخر على ابراز العرب انهم قوم ارهابي متخلف معاد للسامية والديمقراطية، وانهم لا يريدون السلام، بينما تحاول تصوير نفسها انها دولة تسعى الى السلام ونشر الديمقراطية وتنبذ العنف، في هذا الخصوص تشير الدراسة الى ابراز اليهود نفسهم انهم عانوا من الغرب المسيحي، وخاصة المحارق النازية (هولوكوست) ولان اليهود اضطهدوا لعقود ولا يستطيعون العيش بامان سوى في وطن يهودي لذلك فان البعض يؤمن بان اسرائيل تستحق معاملة خاصة من قبل امريكا، ايضا فان التاريخ اليهودي في فلسطين يشكل نقطة هامة في هذا السياق والتاريخ يؤكد انه عندما بدأ العمل السياسي الصهيوني الجدي في القرن التاسع عشر، لم يكن هناك سوى 15 الف يهودي في فلسطين، وحتى عندما ولدت اسرائيل، لم يكن اليهود يمثلون سوى 35 % من سكان فلسطين ويملكون 7 % من الارض، ولم تكن السياسة الصهيونية في يوم من الايام راغبة في تأسيس دولة مشتركة او القبول بتقسيم نهائي لفلسطين بين دولتين، ويقول ديفيد بن غوريون في اواخر الثلاثينات، بعد تشكيل جيش قوي كبير اثناء تأسيس الدولة علينا ان نلغي التقسيم ونتوسع في كل فلسطين، ايضا هناك قول رئيسة الحكومة الاسرائيلية غولدا مائير «لا يوجد شيء اسمه فلسطيني» هناك اسرائيليون فاضلون، وعرب اشرار.. وفي هذا الخصوص يبرر اسحق شامير مجازر جيشه بقوله «لا اخلاق يهودية يمكنها ان تمنع الارهاب من ان يكون اداة في المعركة».

التحريض على غزو العراق والتلاعب بالمعلومات

منذ ان بدأت الحملة الامريكية الداعية لاحتلال العراق، تبين بوضوح ان الهدف الامريكي الرئيسي لهذا الغزو كان من اجل حماية امن اسرائيل، خصوصا ان وثيقة عام 1996 التي اعدها نتنياهو وريتشارد بيرل تبرز بوضوح ضرورة احتلال العراق، وقد وضعت هذه الوثيقة جدول اعمال لهذا الغزو وعددت فوائد هذا الاحتلال واثاره الايجابية على المصلحة الاسرائيلية، وتبين الدور الاسرائيلي في تغطية الاحتلال الامريكي للعراق قبل بدء الغزو بايام قليلة عندما دخلت مجموعات من الموساد الى شمال العراق لمراقبة تحركات الجيش العراقي، وشكلت هذه المجموعات حلقات مراقبة واتصال مع القوات الامريكية المحتشدة على حدود العراق.

بدأت حملة ترويج اللوبي للحرب على العراق منذ اواخر التسعينات حين شرع المحافظون الجدد يناقشون مسألة تغيير النظام في العراق، من خلال اسقاط صدام حسين وتحويل العراق الى ديمقراطية نشطة، واطلاق عملية طويلة الامد للتغيير في منطقة الشرق الاوسط، واشتهر في العام 1996 تقرير (الانفصال التام) الذي روج لمشروع «الشرق الاوسط الكبير» مركزا لاسقاط صدام كخطوة اولى، وفي عام 2002 القى نائب الرئيس الامريكي ديك تشيني خطابا محرضا امام قدامى المحاربين في الخارج قال فيه «ان اسرائيل تحث المسؤولين الامريكيين على ان لا يؤخروا الضربة ضد عراق صدام حسين، وذلك بعيد اعلان رئيس الحكومة الاسرائيلي، ارييل شارون، ان التنسيق الاستراتيجي بين اسرائيل وواشنطن بلغ ابعادا غير مسبوقة، وان الاستخبارات الاسرائيلية اعطت واشنطن عددا من التقارير الانذارية حول برامج العراق لاسلحة الدمار الشامل».

في هذا الوقت كتب ايهود باراك في «نيويوك تايمز» يحذر من ان الخطر الاعظم يكمن الآن في عدم التحرك، ونشر سلفه نتنياهو مقالة مشابهة في «وول ستريت جورنال» حملت عنوان الحاجة الى تقويض صدام، قال فيها انه يتحدث باسم الاكثرية العظمى من الاسرائيليين في دعم ضربة استباقية ضد نظام صدام.

كما عملت عصبة صغيرة من المحافظين الجدد كقوة رئيسية محرضة على الحرب داخل الولايات المتحدة والعديد من هؤلاء كانوا على صلة «بالليكود» وسعى المحافظون الجدد لتقويض نظام صدام قبل ان يصبح بوش رئيسا ووجه عدد منهم مثل اليوت ابرامز وجون بولتون ودوغلاث فايث، ويليام كريستول، برنارد لويس، دونالد رامسفيلد، ريتشارد بيرل، بول وولفويتز، رسالتين الى الرئيس كلينتون في العام 1998 يدعونه فيهما الى عزل صدام حسين عن السلطة، لكن هؤلاء كانوا بحاجة لمساعدة ما تدفع باهدافهم قدما، وصلت هذه المساعدة مع احداث 11 ايلول (سبتمبر) التي جعلت بوش وتشيني تحديدا يعيدان ترتيب اولوياتهما، بحيث اصبحا مناصرين قويين للحرب الاستباقية، وفي اجتماع مع بوش في كامب دايفيد في 15 ايلول (سبتمبر) العام 2001 دافع وولفوتيز عن ضرورة مهاجمة العراق قبل افغانستان، وفي 21 تشرين الاول (اكتوبر) من العام ذاته امر بوش جهاز التخطيط العسكري بتطوير خطط معينة للغزو. وقد لعب مفكرون كبرنادر لويس من برينكسون، وفؤاد عجمي من جامعة «جونز هوبكنز» ادورا مهمة في اقناع تشيني بان الحرب هي الخيار الافضل، بالاضافة الى محافظين جدد من فريق موظفي تشيني، مثل اريك ادلمان، جون هاناه، سكوتي ليبي.

ايضا فان اللوبي عمل في التلاعب بالمعلومات الاستخبارية بطريقة تظهر صدام بانه يشكل تهديدا وشيكا، جزءا مهما من الحملة المروجة للغزو، واخذ سكوتر ليبي يضغط على محللي (السي اي ايه) لايجاد حجة تدعم قرار الحرب وساعد كولن باول في اعداد تقريره الملفق الذي قدمه في مجلس الامن، واوكل للمحافظين دايفيد وورمسر، واللبناني الامريكي مايكل معلوف، القريب من ريتشارد بيرل، مهمة الكشف عن الادلة التي قد تستخدم لتبرير الحرب على العراق، في ما كان يعرف بمكتب الخطط الخاصة في الكونغرس والذي يرأسه المحافظ الجديد وصاحب الروابط الوثيقة بوولفويتز «ابرام شولسكي» وكانت التقارير ترسل مباشرة الى دوغلاث فايث، الملتزم بدعم قوة اسرائيل والذي يحظى بروابط وثيقة مع الليكود، ويعرف فايث مع بيرل وورمسر باصدارهم التقرير الشهير «الانفصال التام» الذي اوصى نتنياهو بالتركيز على ازاحة صدام حسين من السلطة في العراق كهدف استراتيجي اسرائيلي مهم يصب في مصلحتها.

* كاتب من لبنان يقيم في امريكا

في ذكرى «سقوط» بغداد

يحيى اليحياوي *

■ قد لا يسلم المرء قطعا بمفصلية تاريخ العشرين من اذار (مارس) من العام 2003 (تاريخ انطلاق الغزوة الأنكلو ـ أمريكية الكبرى ضد العراق) فيعتبرها (عن صواب أو عن خطأ) أنها مجرد امتداد لحالة من الحصار اللامتناهي لدولة ولشعب ذهب في جريرتها الأخضر واليابس ولم يسلم من عنفها لا الثابت ولا المتحرك سواء بسواء.

وقد لا يسلم المرء أيضا بمفصلية التاريخ اياه على اعتبار أن ما جرى في ذلك اليوم لم يكن له الا أن يجري للخروج من حالة الاحتقان القصوى التي لم يعد معها لطرفي المعادلة الا أن ينازلا بعضهما البعض لاستعجال الخروج من ذات الحالة أيا تكن النتائج والتداعيات.

لكن الرأيين معا، بصرف النظر عن صوابهما من عدمه، لا يمكن الا أن يتماهيا في الاعتقاد بأن صبيحة التاسع من نيسان/أبريل من العام نفسه، صبيحة سقوط بغداد، انما تؤسس بامتياز ودونما مزايدة كبرى لبداية مرحلة مفصلية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر بامكان علماء التاريخ والسياسة أن يقيسوا لاحقها بسابقها دونما عسر كبير:

■ فنظام حكم الرئيس صدام حسين تهاوت مقوماته المادية (العسكرية تحديدا) فانصرف بعض من أركان النظام اياه لترتيب سبل المقاومة وذهب البعض الآخر للاعتكاف في منزله بين أهله وقبيلته وعشيرته، فيما فضل البعض الآخر الذود بنفسه في هذه الجهة من العالم أو تلك بانتظار المجهول الآتي أو بانتظار الفرج.

■ ومرافق الدولة الكبرى طاولتها في صبيحة التاسع من نيسان (أبريل) (وفيما بعد أيضا) شتى أنواع النهب والتخريب وعاثت العصابات العشوائية (أفرادا وجماعات) فسادا في الأبنية الرسمية فدمرت محتوياتها وسطت على ما بدا لها أنه ذو قيمة أو حتى دونما أن تكون له قيمة مادية أو رمزية تذكر... في حين تكفلت العصابات المنظمة (القادمة من على ظهور الدبابات والمروحيات) بتدمير متاحف العراق وكنوزه التاريخية بعدما تسنى لها السطو على أثمنها وأعمقها ضربا في الحضارة.

■ والتمثال الرمزي، المقام نصبه بساحة الفردوس بقلب بغداد، تهافت نفر من البشر مجهول لاسقاطه فلم تسعفهم في ذلك الا دبابة جند أمريكية عمد بعضهم الى لف التمثال بعلم أمريكي دونما دراية من لدنه في الأبعاد الرمزية لذات الفعلة.

لم يعد الشك يخالد أحدا أن بغداد سقطت يومها فعلا، بقدر ما خالده بعمق بجهة السر وراء غياب الجيش (لدرجة الذوبان) وبجهة ما بشر به الرئيس العراقي بأن «الأمريكان سينتحرون على أسوار بغداد»... ان هم بلغوها أصلا.

وعلى الرغم من تضارب الأقوال (لدرجة المزايدة المجانية في بعض الأحيان) بأنه كان ثمة تواطؤ ما لدرجة الخيانة من لدن بعض أركان النظام (العسكريين الكبار تحديدا)، فانه لا تتوفر لحد الساعة وثائق وحجج دامغة تثبت ذلك أو تعري المتواطئين بالوثيقة والدليل... لدرجة أنه حتى الذين أشير اليهم بالأصبع في ذلك تبرؤوا منه جملة وتفصيلا واستهجنوا أن يصدر عنهم تصرف مثيل.

واذا كان من الحماقة حقا (في حينه على الأقل) الادعاء بامكانية صمود بغداد بعدما أضحت البلاد كلها تحت الاحتلال (وقد كان طرفاها الشمالي والجنوبي محرمين على السلطة المركزية قبل العشرين من اذار/مارس)، فانه من الحماقة أيضا مؤاخذة الرئيس صدام حسين كونه لم يدافع عن أسوار بغداد (كما تعهد) أمام «التتار الجدد» المدججين بأحدث الطائرات والدبابات والمستعدين لدك بغداد على رؤوس أهلها ان اقتضى الأمر ذلك أو استعصى عليهم أمر دخولها (تماما كما فعل هولاكو من ذي قبل).

لم يكن ثمة من سبيل للمكابرة أمام قوة اعتنقت التدمير ايديولوجيا ولم تتوان عن سحق كل من اعترضها بشرا كان أم حجرا سواء بسواء... فسقطت بغداد «دون مقاومة» أو هكذا قيل في حينه.

الا أن التنظيم العالي الدقة للمقاومة، فيما بعد، يشي اليوم بما لا يدع مجالا للمزايدة بأنها كانت الخيار المعتمد (في العشرين من اذار ـ مارس) والمحبذ (عند مغادرة القيادة لبغداد) والناجع فضلا عن كل هذا وذاك فيما بعد السقوط ... أولم تثبت الأحداث فيما بعد ولحد الساعة بأن المقاومة هي اليوم من صنع أهل بغداد أو على الأقل محتضنة من بين ظهرانيها؟ أولم تثبت الأحداث أن انسحاب القيادة من بغداد انما كان تدشينا لعملية الكر والفر التي اعتمدتها المقاومة منذ التاسع من نيسان (أبريل) واتخذت منها الأداة والوسيلة للدفع بجنود الاحتلال الى الانتحار التدريجي على أسوار بغداد؟ هو كذلك وبالضبط فيما يبدو لنا.

وعلى الرغم من الحسرة الكبرى التي تملكتنا عندما صرح الحاكم الأمريكي للعراق في حينه، بحل حزب البعث وتسريح مئات الآلاف من ضباط وجنود الجيش العراقي، فان الحسرة الأكبر انما تمثلت في الغاء «مجلس الحكم» (وأعضاؤه لقطاء وعملاء وسماسرة ومرتزقة وما سواهم عينهم الاحتلال) للأعياد الوطنية العراقية واعتماد تاريخ التاسع من نيسان (أبريل) «يوما وطنيا» تعطل فيه المصالح وتشد اليه «ذاكرة الأفراد والجماعات».

هل شهد التاريخ حقا حكاما، من ذي قبل، يعتمدون تاريخ سقوط عاصمة بلدانهم (وعبرها كل البلاد) ويسمون بذات التاريخ الى مرتبة تكريسه عيدا وطنيا تحتفل به الأجيال سنويا للذكرى والرمز؟

يشي الأمر هنا (وهو أمر تأكد مع مرور الزمن) أن الحكام الجدد انما أرادوا محو تاريخ العراق ورمزية التواريخ السابقة ليثبتوا يوما أهين فيه أهل العراق ونكل بكرامتهم ومرغت هيبتهم وأضحوا تحت الاحتلال المباشر في زمن زعم البعض أن زمن الاحتلالات قد ولى حقيقة دونما رجعة.

وهل شهد التاريخ، من ذي قبل، تعمد حكام بلد محتل الى تغيير راية بلدهم والطعن في السائد منها كما لو أن الراية رمز نظام وليست رمز أمة وشعب؟

يبدو من هذا الاجراء أن القصد لم يكن محو مرحلة أساس من تاريخ العراق فحسب، بل أيضا محو الذاكرة الجماعية التي تحتكم الى رمزية التاريخ اياها الجميل منه كما القبيح سواء بسواء.

هل سقطت بغداد حقا في التاسع من نيسان (أبريل) من العام 2003؟

لا يبدو لنا الأمر كذلك:

■ فالحكام الجدد (بحكومتهم وبرلمانهم ومقرات وزاراتهم وتمثيليات الاحتلال والقائمين على هذا الأخير) لم يستطيعوا التحكم في عاصمة الرشيد على الرغم من سيطرتهم على العراق... بدليل اختبائهم (بالمنطقة الخضراء) خلف اسوار من الاسمنت والحديد يحرسهم جيش عرمرم من الجند والآليات المتطورة في الرقابة والتنصت. وحتى بهذه المنطقة فنادرا ما يمشي أحدهم منفردا دونما أن يلتفت من خلفه أو ترتجف أعضاؤه من استهداف ما من هذه الزاوية أو تلك.

■ والمقاومة العراقية تضرب في قلب بغداد متى تراءى لها ذلك وتستنفر، ليل نهار، قوات الاحتلال كما القوات المتعاونة معه التي انعدمت من بين ظهرانيها السبل والطرائق لضمان الحد الأدنى من الأمن والطمأنينة لها وللاحتلال.

■ والعلم الوطني الذي تكالب عليه أعضاء «مجلس الحكم» بغرض تغييره لم يستطيعوا تغييره سيما بإخراجهم لعلم ماسخ استهجنه العراقيون فاغتالوا بادرته في المهد دونما تردد.

ان بغداد لم تسقط (ومدن كبغداد لا تسقط هكذا)، والذين تملكتهم النشوة عندما دخلوها دونما مقاومة نظامية، ها هم اليوم ينتحرون على أسوارها أو في أفضل الأحوال نراهم محاصرين بأسوار من نفس التربة التي بنيت بها بغداد. فليعش العراق العظيم ولتعش بغداد الشامخة أبدا.

* كاتب جزائري

لو كانوا يريدون علاجا للاحتقان الطائفي..

سيد ضيف الله*

■ هناك وثائق يمكنها ان تكشف لنا ان الزمن يرجع للوراء في بلدان تزعم انها تسير للامام على طريق الاصلاح السياسي، وانها اكثر ديمقراطية من اكبر الديمقراطيات في العالم، مثل هذه الوثائق تسقط غالبا من الذاكرة، بسبب من الاهتراء الذي اصاب الذاكرة الوطنية. ومن هذه الوثائق ذلك التقرير الذي كتبته لجنة برلمانية بتكليف من الرئيس أنور السادات لتقصي الحقائق في احداث العنف الطائفي في الخانكة في 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1972، تشكلت هذه اللجنة برئاسة الدكتور جمال العطيفي وكيل المجلس، وعضوية كل من محمد فؤاد ابو هميلة، وألبرت برسوم سلامة، وكمال الشاذلي، والدكتور رشدي سعيد، وعبد المنصف حسن زين، والمهندس محب استينو. وكان رئيس المجلس في هذا الوقت هو حافظ علي بدوي.

وأهمية هذه الوثيقة لا ترجع في حقيقة الأمر الى الحقائق التي تقصتها واستظهر